

دلائل الإعجاز

فصل في " إنما " و " طَنْ " .

إن قيل : مضيتَ في كلامك كَلِمَةً على أن " إنما " للخبر لا يجهلُ المخاطَبُ ولا يكونُ ذكرُك له لأنَّ تَفِيدَهُ إِيَّاهُ . وَإِنَّمَا لِنَرَاها فِي كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ . وَالْقَصْدُ بِالْخَبْرِ بَعْدَهَا أَنْ تُعْلِمَ السَّامِعَ أَمْرًا قَدْ غَلَطَ فِيهِ بِالْحَقِيقَةِ وَاحْتِاجَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ كَمَثَلِ مَا ذَكَرْتَ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْ قَوْلِكَ : إِنَّمَا جَاءَنِي زَيْدٌ لَأَعْمُرُو . و تراها كذلك تدورُ في الكُتُبِ للكشفِ عن معانٍ غيرِ معلومةٍ ودلالةِ المتعلمِ منها على ما لا يعلمُ .

قيل : أمّا ما يجيءُ في الكلامِ من نحوِ : إِنَّمَا جَاءَنِي زَيْدٌ لَأَعْمُرُو فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ يَكُونُ إِعْلَامًا لِأَمْرٍ لَا يَعْلَمُهُ السَّامِعُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يُدْرِي هُنَاكَ فَضْلُ انْكَشَافٍ وَظُهُورٍ فِي أَنَّ الْأَمْرَ كَالَّذِي ذُكِرَ . وَقَدْ قَسَمْتُ فِي أَوَّلِ مَا افْتَتَحْتُ الْقَوْلَ فِيهَا فَقُلْتُ إِنَّمَا تَجِيءُ لِلْخَبْرِ لَا يَجْهَلُهُ السَّامِعُ وَلَا يَنْكَرُ صِحَّتَهُ أَوْ لِمَا تَنْزَلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ . وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّهَا تَجِيءُ فِي الْكُتُبِ لِذَلَالَةِ الْمُتَعَلِّمِ عَلَى مَا لَمْ يَعْلَمَهُ فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ مَوَاقِعَهَا وَجَدْتَهَا فِي الْأَمْرِ الْأَكْثَرَ قَدْ جَاءَتْ لِأَمْرٍ قَدْ وَقَعَ الْعِلْمُ بِمَوْجِبِهِ وَشَيْءٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْكِتَابِ قَالَ فِي بَابِ كَانٍ : " إِذَا قُلْتَ : كَانِ زَيْدٌ قَدْ ابْتَدَأَ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُ مِثْلَهُ عِنْدَكَ وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ الْخَبَرَ . فَإِذَا قُلْتَ : حَلِيمًا فَقَدْ أَعْلَمْتَهُ مِثْلَ مَا عَلِمْتَ . وَإِذَا قُلْتَ : كَانِ حَلِيمًا فَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ أَنْ تَعْرِفَهُ صَاحِبَ الصِّفَةِ " . وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ لَا يَكُونُ مَبْتَدَأً مِنْ غَيْرِ خَيْرٍ وَلَا خَيْرٌ مِنْ غَيْرِ مَبْتَدَأٍ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : كَانِ زَيْدٌ . فَالْمُخَاطَبُ يَنْتَظِرُ الْخَبَرَ . وَإِذَا قُلْتَ : كَانِ حَلِيمًا أَنَّهُ يَنْتَظِرُ الْأَسْمَ فَلَمْ يَقَعْ إِذَا بَعْدَ " إِنَّمَا " إِلَّا شَيْءٌ كَانَ مَعْلُومًا لِلْسَّامِعِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ . وَمِمَّا الْأَمْرُ فِيهِ بَيِّنٌ قَوْلُهُ فِي بَابِ طَنْتَ : وَإِنَّمَا تَحْكِي بَعْدَ " قُلْتُ " مَا كَانَ كَلَامًا لَا